

الباب الأول

فى فجر الإسلام

obeikandi.com

الباب الأول فى فجر الإسلام

تم لعمرو بن العاص فتح مصر يوم أن وقع الهدنة بينه وبين «قيروس Cyrus» فى ديسمبر سنة ٦٤١م (المحرم ٢١ هـ). ثم دخل جيشه الإسكندرية بعد أحد عشر شهراً - وهى مدة الهدنة المتفق عليها - وهذا هو الفتح الأول للإسكندرية^(١)، وقد تم صلحاً لا عنوة، غير أن الروم لم يلبثوا أن استشعروا ضعف المدينة بعد عزل عمرو عن ولاية مصر وتولية عبد الله بن سعد، فعادوا إليها فى أواخر سنة ٦٤٥م (أوائل سنة ٢٥ هـ).

وندى عمر لقتالهم، فهزمهم خارج المدينة، ثم تتبعهم إلى أسوارها، ويقال إنه عندما رأى الأسوار تقوم سداً مانعاً بينه وبين المدينة ندم أن لم يقدم على هدمها عند دخوله المدينة فى المرة الأولى، وحلف لئن أظفره الله بالمدينة ليهد من أسوارها^(٢)، ثم هاجم هذه الأسوار بمجانيقه من ناحيتها الشرقية إلى أن سلمت له، ومن هنا ترددت القالة فى بعض الكتب بأن عمراً هدم جميع أسوار الإسكندرية بعد دخوله إليها، وهى فى الحقيقة قالة ظالمة، والراجح أن بعض أجزاء السور من جهتيه الشرقية والجنوبية قد هدمت أثناء الحصار والقتال بين العرب والروم إبان هذا الفتح الثانى للمدينة.

غير أن هذه الأسوار أعيد بناؤها فى العصر العربى، وليس من المعروف على وجه التحديد متى أعيد بناؤها، وإن كانت بعض المراجع تشير إلى أنها بنيت ثانية فى عصر أحمد بن طولون (فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى = ٩م).

ولم تكن الإسكندرية وقت أن دخلها العرب فى ازدهارها القديم، بل لقد كانت عوادي الزمن قد أتت على بعض معالمها، كما كانت الحوادث السياسية قد أتت على بعض آخر، فإن النزاع بين الرومان والبطالمة، ثم النزاع بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين، ثم النزاع بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين، كل هذا كان له أثره الواضح فى تخريب الكثير من معالم المدينة الهامة التى كانت تميزها وتزينها فى العصر اليونانى، فالمدينة وقت دخول العرب كانت قد فقدت مكتبتها الكبرى ودار حكمتها، والقصور الملكية لم يكن لها بهاؤها القديم وعظمتها

(١) بنلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٨٩ من الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٢ - ٤١٣.

السالفة^(١)، ومعبد السيرايبوم والقيصريون كانت قد نالت منهما أيدى التخريب إبان النزاع الدامي بين المسيحية والوثنية وإن كانت قد أقيمت على أجزاء منهما كنيستان كبيرتان.

ومع هذا كله فقد بهرت المدينة أعين العرب عند رؤيتها ورؤية مبانيها، فوصفوها وصف المعجب المشدوه، وأشاروا أكثر ما أشاروا إلى معالمها البارزة ومبانيها المميزة، كالمنارة وعمود السوارى وكنيسة القيصريين، ومسلات كليوباترة، وقصور المدينة، وحماماتها، وصهاريجها، وشوارعها المكسوة بالمرمر والرخام، وكثرة ما بها من عمد، وأخيراً أسوارها وحصونها وأبراجها^(٢).

وقد انكشفت المدينة فى أوائل العصر العربى عما كانت فى العصور القديمة فلما أعيد بناء السور روعى أن يضم إليه المنطقة الآهلة بالسكان فقط وهى التى تحتاج إلى الدفاع عنها، وترك خارجه منطقتان كبيرتان فى شرقى المدينة وجنوبيها. أما المنطقة الشرقية فكانت تقوم عليها مقابر اليونان والرومان ولا حاجة لأن تضمهما الأسوار إلى المدينة، وأما المنطقة الجنوبية فكانت تضم بعض المزارع وبقية من أطلال معبد السيرايبوم وأطلال ما كان يحيط به من مبان وبيوت، يشرف عليها جميعاً عمود السوارى، ولم يكن هناك داعٍ لصرف الأموال الطائلة لتوسيع محيط السور عند إعادة بنائه ليضم كل هذه الأطلال.

ويتضح الفرق بين مساحتى المدينة قبل الفتح العربى وبعده فى الخريطة التى رسمها الفلكى باشا لتخطيط أسوار المدينة فى العصرين، وقد بنيت للأسوار الجديدة أبواب تقابل الأبواب القديمة، وإن كانت قد سميت بأسماء جديدة، فالباب الذى بنى فى الشرق مقابل باب الشمس سمي باب رشيد، أو باب القاهرة، لأنه كان يؤدى إلى طريق رشيد، ومنها إلى القاهرة. والباب الذى بنى فى الغرب مقابل باب القمر سمي باب القرافة، لأنه كان يؤدى إلى جبانة هناك، وكان لا يفتح إلا يوم الجمعة، ثم بنى فى الجنوب باب سمي «باب سدرية»^(٣) فقد كانت تقوم

(١) بتلر، المرجع السابق، ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر الفصل القيم الذى كتبه بتلر فى كتابه السابق بعنوان «وصف الإسكندرية عند الفتح»، ص ٣١٩ -

٣٤٧، وما به من مراجع، والمقرضى (الخطط، ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٧٣).

(٣) كان يطلق على هذا الباب فى العصرين الأيوبي والملوكى «باب البهار» فقد كان بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم خليج الإسكندرية، حيث تفرغه خارج الإسكندرية عند هذا الباب. وفى الأوقات التى كانت تتعطل فيها الملاحة فى الخليج كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال تأتى عبر الطريق البرى وتدخلها من باب البهار لا من باب رشيد. انظر: (الدكتور جمال الدين الشيال، الإسكندرية فى العصرين الأيوبي والملوكى) فصل من كتاب الإسكندرية الذى أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية فى سنة ١٩٤٩م ص ٩٦ - ١٠٣.

إلى جانبه شجرة عاتية من أشجار السدر، (أو باب العمود لإشرافه على عامود السواري)، أما باب البحر فى شمال المدينة فقد بقى كما هو يشرف على الميناء الشرقى.

هذا أهم تغيير أصاب المدينة فى العصر الإسلامى الأول، يضاف إليه ما استحدثت فيها من مساجد، تبعاً لوجود الحامية العربية بها، وازدياد عددها مع مرور الزمن، وتبعاً لانتشار الدين الإسلامى بين أهلها^(١). وقد أنشئ بعض هذه المساجد إنشاءً، وأقيم البعض الآخر على أطلال المعابد أو الكنائس القديمة، وتشير مراجع العصر الإسلامى الأول إلى ستة من هذه المساجد، ولكنها لا تحدد مواقعها تحديداً قاطعاً، وهى:

١ - مسجد سليمان عند القيسارية.

٢ - مسجد الخضر.

٣ - مسجد ذى القرنين (ولعله بنى بالقرب من قبر الإسكندر، ولهذا سمي بهذا الاسم).

٤ - مسجد عمرو بن العاص، وتنص المراجع على أنه بنى فى وسط المدينة، وكان يسمى أيضاً «مسجد الرحمة» لأنه بنى فى المكان الذى رفع فيه عمرو السيف عن أهل المدينة حين دخلها عنوة فى فتحه الثانى.

٥ - مسجد موسى، وقد بنى بالقرب من المنارة.

٦ - مسجد المنارة، وقد بنى داخل المنارة نفسها ليكون مصلى للجند المرابطين بها.

وقد أعجب عمرو بالمدينة ومبانيها حتى ليقال إنه كتب إلى الخليفة عمر يصفها له بقوله:
«لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة»^(٢).

كذلك يروى أنه لإعجابه بها فكر فى أن يتخذها عاصمة له، وأنه نظر إلى مبانيها بعد الفتح وقال: «منازل قد كفيناها»^(٣)، وكتب إلى عمر يعلن إليه هذه الرغبة، لولا أن عمر أرسل إليه

Combe: *(Les Levés de gravier d'Ortières a Alexandrie (1686). Dans; (Bulletin of the Faculty of arts, Farouk Ist. University Alex.) vol. 1, 1943 P. 52-67).*

(١) انظر: مقال الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة «الإسكندرية من العصر العربى إلى نهاية العصر الفاطمى»،

كتاب الغرفة التجارية عن الإسكندرية، ١٩٤٩م ص ٨٦.

(٢) بتل ص ٣١٩ وما به من مراجع، وانظر أيضاً: (السيوطى، حسن المحاضرة ج ١، ص ٥٤).

(٣) السيوطى، نفس المرجع، ج ١، ص ٥٧.

ينصحه باختيار مكان آخر لا يفصل بينه وبين بلاد العرب ماء، فتحول عمرو منذ ذلك الحين عن الإسكندرية إلى القضاء المجاور لحصن بابليون وبنى عليه عاصمته الجديدة الفسطاط^(١).

ولم يؤثر تأسيس الفسطاط في مدينة الإسكندرية، بل لقد حافظت على مكانتها القديمة واعتبرت منذ ذلك الحين العاصمة الثانية لمصر، وظلت دائماً موضع العناية من الخلفاء وولاة مصر، فقد كانت في نظرهم جميعاً ثغراً من أهم الثغور الإسلامية التي يجب العناية بها وبحصونها وبوسائل الدفاع عنها.

لهذا لا نعجب إذا رأينا المدينة تنمو في هذا العصر العربي الأول ويزداد عمرانها، فقد استقر بها عدد كبير من العرب، ونزلوا بيوتها القديمة، أو بنوا لأنفسهم بيوتاً جديدة تشير المراجع إلى بعضها، كالبيت الذى بناه الزبير بن العوام بعد الفتح، والمنزل الكبير الذى كان ينزله خمارويه بن أحمد بن طولون عند مريوط بضواحي الإسكندرية.

فالإسكندرية كانت تعتبر ثغراً من الثغور الإسلامية الهامة ورباطاً كبيراً ترابط فيها منذ دخلها المسلمون حامية مسلحة كبيرة، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الإسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ثم يستبدلون بربع آخر، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الإسكندرية، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين، وحاولوا الهجوم عليها لاستردادها.

وكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح بعد نقض الروم يقول:

«قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فالزم الإسكندرية رابطتها، ثم أجر عليهم أرزاقهم، وأعقب منهم فى كل ستة أشهر».

وقد بلغت حامية الإسكندرية فى عهد معاوية سبعة وعشرين ألف جندي منهم عشرة آلاف من أهل الشام، وخمسة آلاف من أهل المدينة ترابط دائماً فيها لحمايتها.
ومن الأقوال المأثورة:

«أربعة أبواب من أبواب الجنة مفتحة فى الدنيا: الإسكندرية، وعسقلان،

وقزوين، وجدة»

(١) جمال الدين الشيال (الفسطاط، كيف اختير مكانها، ولم سميت بهذا الاسم) مقال بمجلة الرسالة، العدد ٨٠٦٤٠ أكتوبر ١٩٤٥م، وقد نشر هذا البحث أخيراً ضمن فصول كتاب للدولف ظهر أخيراً بعنوان «دراسات فى التاريخ الإسلامى»، بيروت، ١٩٦٥م.

ومنها: أن الإسكندرية..

«كثانة الله يحمل فيها خير سهامه»

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى:

«لما نعى إلى ابن عمى خالد بن يزيد - وكان توفى بالإسكندرية - لقينى موسى
ابن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد متفرقين، كلهم يقولون:
هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا، وله أجر شهيد
حتى يحشر على ذلك».

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوع من الجهاد،
ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد.

وكانت حامية الإسكندرية مقسمة إلى عرافات، ولكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من
أصحابه، فتكون الدار لقبيلتين أو ثلاث، وللمدينة أبراج عالية يقف عليها الحراس، وتسمى
مثل هذه الأبراج: المحارس، أو المناظر، أو المراقب، أو الطلائع، فإذا بدا فى أفق البحر شىء
من سفن العدو أعطى حراس المراقب الإنذار، فاجتمع الجند من كل طائفة فى عرافتها، وكان
بالرملة (الرملة حالياً) أربعة آلاف فارس للنجدة.

وكانت المنارة الكبرى فى جزيرة فاروس أعلى هذه الأبراج وأهمها لإشرافها على البحر
مباشرة، وكان المسلمون يحتفلون حولها كل عام احتفالاً خاصاً يعتبر إيداناً ببدء موسم الجهاد
والاستعداد، فكان إذا حل فصل الربيع خرج سكان المدينة فى يوم خاص يسمى «يوم خميس
العدس»^(١) إلى المنارة فيقيمون فيها أو حولها يلهون ويلعبون ويأكلون المأكّل المختلفة - ومن بينها
العدس - فإذا انتهى اليوم عادوا إلى المدينة، وبدأ الجنود المرابطون يحترسون من ذلك اليوم
على البحر والمدينة من هجوم العدو.

ومن معالم المدينة فى هذا العصر - غير ما ذكرنا - الدور الحكومية المختلفة، تشير المراجع
التاريخية إلى وجودها، غير أنها للأسف لا تحدد مواضعها، فمنها:

- دار الإمارة^(٢) حيث كان ينزل الوالى.

- دار الصناعة - أى صناعة السفن - وكانت من أوائل ما أقيم من منشآت فى المدينة، فقد
أنشئت فى عهد الوالى العربى الثانى عبد الله بن سعد بن أبى السرح لبناء السفن التى اشتركت

(١) وصحته «خميس العيد»، وهو من أعياد القبط القديمة، انظر: (المقرئى، الخطط، ج ٣، ص ٣٩٢).

(٢) ذكر (الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٦) أن والى مصر (سنة ٤٣هـ - ٤٤هـ) عتبة بن أبى سفيان «خرج إلى
الإسكندرية مرابطاً، فابتنى دار الإمارة التى فى الحصن القديم (؟)».

في موقعة ذات الصواري، أول موقعة بحرية انتصر فيها العرب على الروم، ولعلها أقيمت حيث كانت توجد دار الصناعة الرومانية القديمة في الميناء الشرقي وإن كان النويرى يذكر أن الإسكندرية كان بها في القرن الثامن الهجري داران للصناعة، إحداهما في الميناء الشرقي، والثانية في الميناء الغربي.

– دار الطراز^(١)، وهي الدار الملكية لصناعة المنسوجات، وأغلب الظن أن الإسكندرية الرومانية كانت تعرف هذا النوع من المصانع، وأن دار الطراز العربية ما هي إلا استمرار لهذا المصنع الروماني القديم بعد إدخال التعديلات المناسبة على نظامه.

عرف خلفاء العصر الأول للإسكندرية هذه المكانة المتأزاة – حربياً عمرانياً واقتصادياً – ولهذا أوشك بعضهم أن يعتبرها إمارة خاصة، فكانوا يولون عليها من قبلهم أمراء يكادون يستقلون عن ولاة مصر، كما حدث حين ولى أحمد بن طولون – أول أمره – على مصر كلها دون الإسكندرية، فلما توفي باكباك، وعين أماجور – أحمد بن طولون – خلفاً له ضم إليه ولاية الإسكندرية كذلك.

وقد شاركت الإسكندرية – بحكم مركزها هذا – مشاركة فعالة في معظم الأحداث السياسية التي شهدتها مصر في العصر العربي الأول، وخاصة في حوادث النزاع بين أمراء مصر الذين حكموها في العصر العباسي الثاني، كما بدأت منذ ذلك العصر تتصل بحوادث المغرب والأندلس – بحكم موقعها الجغرافي – وخير مثال لذلك استضافتها للأندلسيين^(٢) الذين طردهم من الأندلس الحكم الرضى بعد ثورات الرضى المشهورة، والحوادث التي قام بها هؤلاء الأندلسيون أثناء مقامهم في المدينة إلى أن جلوا عنها أثر هام في تاريخها.

(١) انظر: الدكتور جمال الدين الشيال، المقال السابق (الإسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكى). و (نفس المؤلف، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩م، ص ٦٩ – ٧٥) والدكتور محمد عبد العزيز مرزوق (الزخرفة المنسوجة في العصر الفاطمى). Inc. Isl. Art. Tiraz.

(٢) عن أخبار هؤلاء الأندلسيين انظر: (الكندى، الولاية والقضاة، ص ١٥٨، ١٦١ – ١٦٥) و (فازيليف، العرب والروم، الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة – ١٩٥٠م. ص ٥٣ – ٥٧، وما به من مراجع). (وصديق شيبوب، معارك الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٦٢م). الفصل المعنون: غزوة الرضىين، وقد سبق أن نشر هذا الفصل بعنوان: جمهورية أندلسية في مجلة الكتاب، فبراير ١٩٤٩م.